

## المحاضرة التاسعة

### المنظوم والمنثور

الأستاذان: - داود امحمد

- زروقي عبد القادر

النظم: في اللغة جمع اللؤلؤ في السلك .

وفي الاصطلاح: تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل، ومن ذلك قولهم: نظم القرآن

والمنظوم: الكلام الموزون المقفى وهو خلاف النثر

والمنثور: الكلام المرسل غير الموزون ولا المقفى وهو خلاف المنظوم

والحل والعقد من المصطلحات البديعية، فالعقد هو نظم المنثور وعكسه وهو نثر المنظوم، والشرط في نثر المنظوم أن يؤخذ بلفظه ومعناه أو معظم اللفظ فيزداد منه وينقص للوزن ومتى أخذ معنى المنثور دون لفظه لا يعد عقدا ويكون من أنواع السرقات.

وقيل: من أعلى رتب البلاغة نثر المنظوم ونظم المنثور، وقل من يجيد فهما إلا من أعانته دربته، وساعده طبعه وفطرته.

والفرق بين المنظوم والمنثور يكون بالوزن، فالكلام المنظوم هو المقيد بالوزن، والمنثور لا يتقيد بوزن، يقول ابن سنان: "الفرق بين الشعر والنثر بالوزن على كل حال وبالتقفية إن لم يكن المنثور مسجوعاً على طريق القوافي الشعرية". سر الفصاحة، 287 ثم بين أن الوزن هو التأليف الذي يشهد الذوق بصحته أو العروض (علم العروض). أما الذوق فلأمر يرجع إلى الحس وأما العروض فلأنه قد حصر فيه جميع ما عملت العرب عليه من الأوزان فمتى عمل شاعر شيئاً لا يشهد بصحته الذوق وكانت العرب قد عملت مثله جازله ذلك كما ساع له أن يتكلم بلغتهم.

وقد وقف كثير من النقاد عند حد الشعر مع الإشارة إلى أنه ضد النثر (والنثر عكس النظم) يقول ابن طباطبا: "الشَّعْرُ - أَسْعَدَكَ اللَّهُ - كلامٌ منظومٌ بَانَ عَنِ المنثور الَّذِي يَسْتَعْمَلُهُ النَّاسُ فِي

مخاطباتهم بها خُصَّ به من النّظم الّذي إنّ عُدِلَ به عَن جِهَتِهِ مَجَّتُهُ الأَسْمَاعُ وَفَسَدَ على الدَّوْق." عيار الشعر، 5. فهو منظوم يقابل المنثور، وعند ابن سنان: "وأما حد الشعر فهو كلام موزون مقفى يدل على معنى وقلنا: كلام ليدل على جنسه. وقلنا: موزون لنفرق بينه وبين الكلام المنثور الذي ليس بموزون وقلنا: مقفى لنفرق بينه وبين المؤلف الموزون الذي لا قوافي له. وقلنا: يدل على معنى لنحتز من المؤلف بالقوافي الموزون الذي لا يدل على معنى." سر الفصاحة، 286.

وإذا كان الأدب هو "الجميل من النّظم والنثر" المعجم الوسيط، 9 وهو عند القدماء صناعة وهذه الصناعة لا تتأتى لجميع الناس، حيث يرى ابن الأثير أن هناك شروطاً أولها الموهبة فلا يكون أديباً من لا موهبة له في الأدب، ثم هناك شروط يشترك فيها الكاتب والشاعر ثم هناك شروط يختص بها الشاعر.

يقول ابن الأثير: "صناعة تأليف الكلام، من المنثور والمنظوم، تحتاج إلى أسباب كثيرة، وآلات جمّة، وذلك بعد أن يركب الله تعالى في الإنسان الطبع القابل لذلك، المجيب إليه، فإنه متى لم يكن ثم طبع لم تفد تلك الآلات شيئاً البتة. فمثل الطبع كمثل النار الكامنة في الزناد، ومثل الآلات كمثل الحراق والحديدة التي يقدح بها، ألا ترى إنه إذا لم يكن في الزناد نار لا يفيد ذلك الحراق ولا تلك الحديدة شيئاً.

فإذا ركب الله في الإنسان الطبع القابل لمعرفة تأليف الكلام على الإطلاق فيحتاج حينئذ إلى تحصيل الآلات التي يخرج بها ما في القوة إلى الفعل. وتنحصر آلات التأليف في قسمين:

**القسم الأول:** يشترك فيه النظم والنثر. وهو سبعة أنواع: (الأول) معرفة علم العربية من النحو والتصريف والإدغام. (الثاني) معرفة ما يحتاج إليه من اللغة. (الثالث) معرفة أمثال العرب وأيامهم. (الرابع) الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة، المنظوم منها والمنثور، والتحفّظ للكثير من ذلك. (الخامس) معرفة الأحكام السلطانية في الإمامة والإمارة والقضاء وغير ذلك. (السادس) حفظ القرآن الكريم والممارسة لغرائبه، والخوض في بحور عجائبه. (السابع) حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم.

**وأما القسم الثاني** فإنه يخص النظم دون النثر، وذلك علم العروض والقوافي، الذي يقام به ميزان الشعر "الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، 7.

وإذا كان الكلام شعرا ونثرا، فقد "اجتمع الناس على أن المنشور في كلامهم أكثر، وأقل جيداً محفوظاً، وأن الشعر أقل، وأكثر جيداً محفوظاً؛ لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنشور". العمدة لابن رشيق، 20/1

فالنثر هو أكثر كلام العرب والشعر أقل منه، هذا من حيث الكم، أما من حيث الجودة، فإن ما حفظ من جيد الشعر أكثر مما حفظ من جيد النثر، وكان الكلام كله منشوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وسمحاتها الأجواد؛ لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا.

وقيل: ما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون؛ فلم يحفظ من المنشور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره.

ابن خلدون: يرى ابن خلدون أن لسان العرب وكلامهم على فئتين:

1- في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية.

2- النثر وهو الكلام غير الموزون

وكل واحد من الفئتين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام كما يلي:

- الشعر: ومنه المدح والهجاء والرثاء

- النثر: ومنه السجع الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها. ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم.

كما يقف ابن خلدون عند الخصائص المميزة لكل منهما يقول: "واعلم أنّ لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه" ويضرب لذلك مثالا بالنسيب الذي يختص بالشعر، والدعاء المختص بالخطب، وهذا هو الأصل الذي كان عليه الشعر والنثر.

ومما لاحظته ابن خلدون هو ذلك الخروج عن طريقة القدماء حيث استعمل المتأخرون "أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسب بين يدي الأغراض. وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنّه ولم يفتقرا إلّا في الوزن. واستمرّ المتأخرون من الكتاب على هذه الطّريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانيّة وقصروا الاستعمال في المنثور كلّه على هذا الفنّ الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق."

ولا يفوت ابن خلدون الحديث عن القرآن الكريم، حيث يرى أن "القرآن وإن كان من المنثور إلّا أنّه خارج عن الوصفين وليس يسمّى مرسلًا مطلقًا ولا مسجّعًا. بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذّوق بانتهاء الكلام عندها. ثمّ يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنّى من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية وهو معنى قوله تعالى: «اللّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ 39: 23». وقال: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ 6: 97». ويسمّى آخر الآيات منها فواصل إذ ليست أسجاعا ولا يلتزم فيها ما يلتزم في السّجع ولا هي أيضا قواف."

فالقرآن وإن كان منشورا فهو يختلف عن النثر كما يختلف عن الشعر، حيث لا نجده مرسلًا على الإطلاق وليس مسجعا على الإطلاق ولا يلتزم السجع ولا القافية، ولذلك تسمى أواخر الآيات منه فواصل.